

حقيقة التوحيد وبناء الأخلاق عند أهل السنة

مريم خضير العازمي

معلمة في وزارة الشؤون الإسلامية - دولة الكويت

المخلص:

يتناول البحث بيان مفهوم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، وبيان تقسيماته المعروفة، وبيان مشروعياتها وأدلتها من الكتاب والسنة وأقوال السلف، وعلاقة التوحيد بالتربية والبناء الأخلاقي للمسلم، وقد أوضح أن التوحيد في اللغة يدل على الانفراد، وأما في الاصطلاح فهو إفراد الله تعالى بما يختص به من أفعال الربوبية، وحقوق الألوهية، وما له من الأسماء والصفات. ثم بين البحث أن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام (الربوبية، الألوهية، الأسماء والصفات) هو تقسيم استقرائي من نصوص الوحي، ويقابله تقسيم آخر إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب، ولا تعارض بينهما. وقد استعرض البحث عشرات الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي تثبت هذه الأقسام وتجمع بينها في مواضع كثيرة، كما ركز بشكل خاص على توحيد الألوهية لكونه المحور الأساسي الذي قامت عليه دعوة الأنبياء والموضع الذي حصل فيه النزاع، فالمشركون كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، لكنهم يشركون في العبادة، وهو ما يوجب التنبيه على أهمية التفريق بين نوعي التوحيد. وقد أثبت البحث أن توحيد الألوهية هو مدار شهادة التوحيد، وهو مقتضى "لا إله إلا الله"، وأن إخلاص العبادة لله وحده يدخل فيه الخوف، والرجاء، والدعاء، والنذر، والذبح، وغير ذلك من العبادات، ومن صرف منها شيئاً لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر. كما أبرز البحث الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية من عدة وجوه: في اللغة، والمعنى، والمتعلقات، وواقع المشركين، ومجريات الدعوة النبوية. وبين أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام قد عرفوا هذه المعاني وإن لم يستعملوا نفس

الألفاظ، وذكر أقوال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والطبري، وغيرهم، الدالة على هذا التفريق. كما نقل عن ابن القيم والشنقيطي وغيرهما تقريرهم بأن التوحيد يشمل الجوانب العلمية والعملية، وأن القرآن كله دائر حول هذه المعاني. وخلص البحث إلى أن تقسيم التوحيد تقسيم علمي صحيح، ومعتمد على الاستقراء الصحيح لنصوص الوحي، وأنه لا يصح الاعتراض عليه لمجرد عدم ورود ألفاظه في النصوص، ما دام معناه سليماً. كما خُصّص البحث إلى أن توحيد الربوبية يغرس في النفس الثقة والتوكل والرضا، وتوحيد الألوهية يُثمر الإخلاص ومحاسبة النفس وحسن المعاملة، وتوحيد الأسماء والصفات يربط الأخلاق العليا بجلال الله وكماله. والنصوص القرآنية تؤكد هذا الربط المحكم، حيث جعلت فساد العقيدة سبباً مباشراً في فساد الخلق، كما في سورة الماعون، وأمرت بالتخلق بالعبو والرفق كأثر من آثار معرفة صفات الله، كما في سورة الأعراف، وربطت التزكية الأخلاقية بالبعثة النبوية وتلاوة الآيات، كما في سورة الجمعة.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الألوهية، التوحيد، الأخلاق، أهل السنة.

The Reality of Tawhid and the Development of Morals According to the Sunnis

Maryam Khudair Al-Azmi

Teacher at the Ministry of Islamic- Affairs Kuwait

Omturky1980@hotmail.com

Abstract:

This research addresses the concept of Tawhid according to the Sunnis, its known divisions, its legitimacy and evidence from the Qur'an, the Sunnah, and the sayings of the early Muslims, and its relationship to the education and development of the Muslim's moral character. It explains that

Tawhid linguistically denotes exclusivity, whereas technically, it refers to the singling out of God Almighty with His specific acts of Lordship, divine rights, and names and attributes. The research then demonstrates that the division of Tawhid into three categories (Lordship, Divinity, Names and Attributes) is an inductive division based on the texts of revelation. This division is contrasted with another division into two categories: Tawhid of knowledge and affirmation, and Tawhid of intention and seeking, with no contradiction between the two. The research reviewed dozens of pieces of evidence from the Holy Quran and the Sunnah of the Prophet (PBUH) that support these categories and combine them in many places. It also focused specifically on the oneness of divinity, as it is the fundamental axis upon which the prophets' call was based and the point of dispute. The polytheists acknowledged the oneness of Lordship, but they associated partners in worship, which necessitates highlighting the importance of distinguishing between the two types of monotheism. The research demonstrated that the oneness of divinity is the basis of the testimony of monotheism, and is required by "There is no god but Allah." Sincere worship of Allah alone includes fear, hope, supplication, vows, sacrifice, and other forms of worship. Whoever devotes any of these to other than Allah has committed major polytheism. The research also highlighted the difference between the oneness of Lordship and divinity from several aspects: language, meaning, related matters, the reality of the polytheists, and the course of the prophetic call. He explained that the righteous predecessors, including the Companions, Followers, and Imams of Islam, recognized

these meanings, even if they did not use the same terms. He cited the statements of Ibn Abbas, Mujahid, Qatadah, al-Tabari, and others, indicating this distinction. He also quoted Ibn al-Qayyim, al-Shanqeeti, and others, stating that monotheism encompasses both scientific and practical aspects, and that the entire Qur'an revolves around these meanings. The study concluded that the division of monotheism is a valid scientific division, based on the correct induction of the texts of revelation. It cannot be objected to simply because its wording is not found in the texts, as long as its meaning is sound. The study also concluded that monotheism of Lordship instills confidence, trust, and contentment in the soul; monotheism of divinity produces sincerity, self-accountability, and good treatment; and monotheism of names and attributes connects high morals to the majesty and perfection of God. The Qur'anic texts confirm this close connection, making the corruption of belief a direct cause of the corruption of character, as in Surat Al-Ma'un. They also command the adoption of forgiveness and kindness as a result of knowing God's attributes, as in Surat Al-A'raf. They also link moral purification to the prophetic mission and the recitation of the verses, as in Surat Al-Jumu'ah.

Keywords: Islam, Divinity, Monotheism, Ethics, Sunnis.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستعديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد:

فإن تحديد المفاهيم والحقائق على المنهج الشرعي له أثر كبير في صحة التصور والمعتقد، وتزداد أهمية تصوّر الحقائق والمفاهيم على المنهج الشرعي عندما يكون المفهوم متعلقاً بأصل الدين وأساسيه.

ومن المفاهيم والحقائق التي وقع فيها اضطراب كبير «حقيقة التوحيد ومفهومه وبناء الأخلاق».

ومما لا شك فيه أن للتوحيد أهمية كبرى في العقيدة، فالتوحيد هو أول ما يدخل به العبد في الإسلام؛ فغير الموحّد لا يعتبر مسلماً البتة كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٥]، وهو أول واجب على العبد، وآخر ما يجب أن يخرج به العبد من الدنيا.

ومن العجيب أن يقع الخلاف في التوحيد مع عناية القرآن الكريم به وبيانه وأهميته وغايته وحقيقته..

وأول ما وقع الخلاف في مفهوم التوحيد وحقيقته في تاريخ هذه الأمة هو عندما وقع التفرق في الأمة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعد مقتل خليفة المسلمين ذر قرن الفتنة ووقع البلاء في الأمة، وقد كانت أول قضية عقديّة وقع فيها التفرق هي مسألة «الإيمان» حيث كفرت الخوارج عصاة المسلمين غلواً منهم في منزلة العمل، ثم ظهرت بعد ذلك المرجئة كرد فعل للخوارج فأخرجوا العمل من مفهوم الإيمان، واعتبروا الإيمان هو مجرد التصديق القلبي دون عمل القلب والجوارح وبهذا أخرجوا توحيد الألوهية من الإيمان، فإن عمل القلب والجوارح هو حقيقة توحيد الألوهية، ثم لما ظهر جهنم بن صفوان ابتدع القول بنفي

الأسماء والصفات؛ مع قوله بقول المرجئة فاستحكم بهذا الانحراف في مفهوم التوحيد وحقيقته حيث انحرفت الجهمية في مفهوم التوحيد بشطريه العلمي والعملية. فقد صورت «التوحيد» مجرد فكرة ومعرفة لله تعالى لا علاقة لها بالعمل؛ وهذه الفكرة فكرة كاذبة خاطئة حيث نفت الجهمية أسماء الله تعالى وصفاته وسمت ذلك توحيداً. ولما جاء الأشاعرة والماتريدية أخذوا ما عند الجهمية من تصورات ضالة في مفهوم التوحيد وحقيقته في الجملة، وبهذا وقع الخلاف الكبير بين أهل الكلام من جهة، وأهل السنة من جهة أخرى في مفهوم التوحيد وحقيقته.

وبناء على هذا الخلاف فقد اختلفت بينهم المعايير والمقاييس في اعتبار هذا أو ذاك موحداً أو مشركاً، كما اختلفت بينهم معايير نواقض التوحيد ومبطلاته. وسوف نوضح في هذا البحث مفهوم التوحيد وأقسامه عند أهل السنة، ودلالاته على الانفراد والاختصاص، وكذلك نلقي الضوء على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات مع بيان أدلة هذه الأقسام من القرآن والسنة، وكذلك سوف نوضح علاقة التوحيد بأقسامه الثلاثة بالتربية الأخلاقية، وبيان كل قسم من هذه الأقسام وأثره على الأخلاق الحميدة التي يتحلى بها المسلم وتستقيم بها حياته.

اصطلاح التوحيد وأقسامه عند أهل السنة

(أ) مفهوم التوحيد

تُعنى مادة «وحد» بالدلالة على الانفراد والتميز، فتوحيد الله تعالى يعني إفراده بما يختص به وحده من ربوبية وألوهية وأسمائه وصفاته.. وقد ذكر الحافظ أن التوحيد هو العلم بأن الله تعالى واحد^(١)، ومعنى العلم بأنه واحد أي أنه المنفرد الذي لا يشبهه شيء ولا نظير له ولا مثيل.

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة،

ذهب بعض العلماء إلى أن التوحيد هو جعل الشيء واحداً، غير أن هذا المعنى لا يليق بتوحيد الله تعالى، لأن وحدانيته سبحانه ذاتية لا مكتسبة، ولا تتوقف على فعل فاعل أو إرادة جاعل، كما ذكر ذلك العلامة السفاريني إذ يقول: «والتوحيد: تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل، فمعنى وحدت الله نسبت إليه الوجدانية لا جعلته واحداً فإن وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل»^(٢).

ويظهر أن الأنسب في تحديد مفهوم التوحيد هو القول: إنه إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية، وبما له من الأسماء والصفات، وينبغي أن يعلم أن التوحيد لا يتحقق إلا بنفي الحكم عما سوى الموحّد وإثباته له، وذلك أن النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع مشاركة الغير في الحكم^(٣).

إذا تأملنا في معنى التوحيد، وجدنا أن هناك أموراً يختص بها الله تعالى لا يشاركه فيها أحد، فإن اعتقد العبد بأن هذه الخصائص خاصة بالله وحده دون سواه، كان بذلك موحداً.

ويلاحظ أن مفهوم التوحيد عند أهل السنة يتوافق في جوهره مع المعنى اللغوي للمادة، إذ إن كل ما يُسمّى توحيداً في اصطلاحهم هو ما ينفرد به الله تعالى، ولا يُتصور أن يشاركه فيه أحد. وعند الرجوع إلى المعاجم اللغوية، نجد أن أصل معنى (التوحيد) يدور حول الانفراد، كما أن (الواحد) في اللغة هو المنفرد الذي لا شبيه له...

(٢) لوامع الأنوار البهية شرح الدرة البهية: السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٥٦ - ٥٧.

(٣) انظر: المجموع الثمين في فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين: جمع فهد سلمان، دار

الوطن، الرياض، ١/١٧.

فهذا الجوهري رحمه الله تعالى يقول: «الوحده الانفراد. تقول رأيته وحده»^(٤)، كما أن الزجاجي يرى أن الواحد هو المنفرد حيث قال: «ويقال رجل وحدٌ للمنفرد قال النابغة:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد»^(٥)

وقد ربط الزجاجي بين معنى الواحد في اللغة وبين ما يجب لله تعالى فقال: والواحد: الفرد الذي لا ثاني له من العدد، فالله هو الواحد الأحد الأول الذي لا ثاني له، ولم يسبقه شيء... والواحد أيضاً: الذي لا نظير له ولا مثل، كقولهم: فلان واحد قومه في الشرف أو الكرم أو الشجاعة أي لا نظير له في ذلك ولا مساجل.... فالله الواحد الذي لا نظير له ولا مثل»^{(٦)(٧)}.

(ب) أقسام التوحيد

اصطلاح أهل السنة والجماعة على تقسيم التوحيد بطريقتين من التقسيم:

الأولى: تقسيم ثلاثي.

الثانية: تقسيم ثنائي.

التقسيم الثلاثي.

قسم أهل السنة والجماعة التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

(٤) الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ، ٥٤٧/٢.

(٥) اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، تحقيق: عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ، ص ٩٠.

(٦) اشتقاق أسماء الله ص: ٩٠-٩٢.

(٧) انظر في: الصحاح ٥٤٧/٢، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص ٤١٤، ولسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ٤٤٦/٣.

٢- توحيد الألوهية

توحيد الأسماء والصفات^(٨).

التقسيم الثنائي:

وقسموه إلى قسمين هما:

١- توحيد المعرفة والإثبات.

٢- توحيد القصد والطلب

ويعبر عن النوع الأول - في التقسيم الثنائي - بتعبيرات مختلفة كما يلي:

١ - التوحيد في العلم والاعتقاد.

٢ - التوحيد العلمي.

٣ - التوحيد في العلم والقول.

٤ - التوحيد القولي.

٥ - التوحيد العلمي الخبري.

٦ - توحيد العلم.

٧ - توحيد علمي اعتقادي.

٨ - توحيد قولي اعتقادي^(٩).

كما يعبر عن النوع الثاني - في التقسيم الثنائي - بما يلي:

١ - التوحيد في الإرادة والقصد.

^(٨) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار البيان، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ، ص ١٥، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان آل الشيخ، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٥هـ، ص ٣٣-٣٨.

^(٩) انظر: مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة مصورة عن مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ٣٣/١، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية، تصحيح وتعليق: محمد عبد الرحمن بن قاسم، مؤسسة قرطبة، ٤٧٩/١، وشرح الطحاوية ص: ٨٨.

٢- التوحيد القسدي الإرادي.

٣- التوحيد في الإرادة والعمل.

٤- توحيد العمل.

٥- التوحيد العملي.

٦- التوحيد الفعلي.

٧- التوحيد الإرادي الطلبي^(١٠).

وهذا التقسيم - بشقيه - تقسيم صحيح لا تعارض بينهما؛ فمن نظر إلى التوحيد من جهة تعلقه بالله تعالى قسّمه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. أما من نظر إليه من جهة تعلقه بالعبد، فقسّمه إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب.

فالتقسيم - إذن - بابان لمعنى واحد.

فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يندرجان تحت توحيد المعرفة والإثبات، أما توحيد الألوهية فيندرج تحت توحيد القصد والطلب.

ومع أن هذا التقسيم لم يرد بألفاظه نصًّا في الكتاب والسنة، إلا أن معناه صحيح لا شك في صحته، ومضمونه حقٌّ لا غبار عليه.

فالاصطلاح يقوم على تخصيص ألفاظ معينة للتعبير عن معانٍ محددة، وترتيبها في أقسام معينة، فإن كانت هذه المعاني صحيحة، كان الاصطلاح وتقسيمه صحيحًا، وإن كانت باطلة، كان الاصطلاح باطلاً. ومن ثمّ، فليست جميع الاصطلاحات حقًا، ولا كلها باطلاً، وإنما يُحكم عليها بحسب صحة المعاني التي تتضمنها.

ولذلك لم يختلف العلماء في صحة المصطلحات المستعملة في علوم النحو والصرف وأصول الفقه ونحوها، إذ إن المعاني التي تدل عليها صحيحة، ولم يُنكر

^(١٠) انظر: مدارج السالكين ٣٣/١، وبيان تلبيس الجهمية ٤٧٩/١، وشرح الطحاوية ص: ٨٨.

أحد من أهل العلم هذه الاصطلاحات بحجة أنها لم ترد في نصوص الكتاب والسنة.

وهذا المعنى محل اتفاق، ولا أعلم فيه خلافاً بين من أدرك العلم وفهمه على وجهه.

في المقابل، اعترض علماء أهل السنة على مصطلحات أهل الكلام وتقسيماتهم، إما لما تتضمنه من معانٍ باطلة، أو لما فيها من إجمال وغموض قد يُفضي إلى إدخال معانٍ باطلة تحتها.

الأدلة الشرعية على أقسام التوحيد:

وعند التأمل في نصوص القرآن والسنة، يتبين أنها اشتملت على الدلالة على أقسام التوحيد، وسنذكر في هذا الموضع جملة من الأمثلة والنماذج التي تبرز هذه الدلالة، ومنها:

- أن سورة الفاتحة، وهي: «أم الكتاب»، «والسبع المثاني»، «وأعظم سورة في القرآن»، قد دلت على أقسام التوحيد بأوضح بيان:
- فأما توحيد العلم والاعتقاد، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات فإن مداره على إثبات صفات الكمال، ومنها كمال أفعاله، وكمال صفاته الذاتية، وهذا مبين في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢].
- فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله مع محبته والرضا عنه، وهذا متضمن لنفي النقائص والعيوب، وقوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} يدل على ربوبيته وتدبيره الجميع خلقه كما يشاء.
- وقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الفاتحة: ٣] يدل على توحيد الأسماء والصفات وقوله تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] يدل على الربوبية والملك المطلق.

فيتلخص من هذا أن هذه الآيات الثلاث دلت على توحيد الربوبية والأسماء

والصفات في أكثر من موضع:

فتوحيد الربوبية دل عليه قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، وقوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقوله تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

وتوحيد الأسماء والصفات دل عليه قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، وقوله تعالى: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

والربوبية هي من جملة الصفات الفعلية، فكل ما دل على الربوبية دل على الصفات.

- أما توحيد الإرادة والعمل فدل على معناه في السورة قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، فالتعبد والعبادة عمل قلبي، وعمل ظاهر بالجوارح فالعبادة تجمع غاية الذل والخضوع وغاية الحب، ولابد لها من آثار على الظاهر بالاتباع والانقياد لمرادات المحبوب، والحرص في قوله تعالى: إياك نعبد ويدل على التوحيد والإفراد لله بالعبادة ويدل على هذا التوحيد في السورة «اسم الله» فإنه مشتق من الإله ومعناه المعبود.

• ومما يدل على أقسام التوحيد في القرآن الكريم: سورتا الكافرون والإخلاص، إذ اشتملتا على جميع أنواع التوحيد، ولذا سُميتا بسورتي الإخلاص لما تضمنتا من بيان توحيد الله تعالى. وقد كان النبي ﷺ يقرن بينهما في ركعتي الفجر، وركعتي المغرب، وركعتي الطواف، مما يدل على تكامل معانيهما في تقرير التوحيد.

فسورة «الكافرون» تدل على التوحيد العملي الإرادي وهو توحيد الألوهية، وسورة «الإخلاص»، تدل على التوحيد العلمي الخبري وهو توحيد الأسماء والصفات المتضمن التوحيد الربوبية.

فقوله تعالى: {لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}

[الكافرون: ٢، ٣] يدل على التوحيد العملي وهو توحيد العبادة

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ} [الإخلاص] يدل على التوحيد العلمي.

- كما أن أقسام التوحيد موجودة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١، ٢٢].

- فقولته تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} يدل على التوحيد العملي الإرادي.

- وقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ}. يدل على التوحيد العلمي الخبري.

- وكذلك وجدت هذه الأقسام في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا كَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦١ - ٦٥].

ففي هذه الآية الكريمة جمع الله تعالى بين الدلالة على التوحيدين معاً:

- أما توحيد الربوبية الذي هو الدليل والبرهان على توحيد الألوهية ففي قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ} وقوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} وقوله تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ} وقوله تعالى: {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} ويدخل في هذا المعنى توحيد الأسماء والصفات، فإن الربوبية من جملة صفات

الله تعالى. ويدل على توحيد الأسماء والصفات - استقلالاً - قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}** وقوله تعالى: **{فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** وقوله تعالى: **{هُوَ الْحَيُّ}**.

- أما توحيد الألوهية «العبادة» وهو المدلول والمستدل عليه، فيدل عليه قوله تعالى: **{فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}**، وقوله تعالى: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}**، والإله: هو المعبود.

فهذه الآية صريحة في بيان أقسام التوحيد وأنه مشتمل على العلم والعمل. • وكذلك ذكرت أقسام التوحيد في سورة الناس يقول الله تعالى: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}** [الناس: ١-٣]. فقد جمعت هذه السورة بين توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، بياناً لكمال توحيد الله تعالى بجميع أنواعه.

- ويظهر توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في قول الله تعالى: **{رَبِّ النَّاسِ}**، وقوله تعالى: **{مَلِكِ النَّاسِ}**.

- ويظهر توحيد الألوهية في قول الله تعالى: **{إِلَهِ النَّاسِ}** والإله: هو المعبود.

• ومما جاء في السنة النبوية مما يدل على أقسام التوحيد ما ورد في قول المضحي عند ذبح أضحيته - بعد قوله «بسم الله والله أكبر» - : «اللهم هذا منك وإليك»^(١١).

- وقوله: «هذا منك» أي خلقاً وإيجاداً، وهذا إشارة إلى توحيد الربوبية وهي من صفات الله تعالى.

^(١١) رواه أبو داود - كتاب الضحايا - باب ما يستحب من الضحايا - ورقمه ٢٧٩٥ ت محيي الدين عبد الحميد، وابن ماجه - كتاب الأضاحي - باب أضاحي رسول الله ﷺ - ورقمه

- وقوله: «وإليك» أي تعبداً وتقرباً ففيه إشارة الى توحيد الألوهية، ومتعلق الأول: العلم والاعتقاد، ومتعلق الثاني: القصد والإرادة. ففي هذا الدعاء المبارك جمع بين التوحيدين معاً. وإذا تتبعنا المعاني التي جاءت في القرآن: أنها من خصائص الله تعالى نجد أنها لا تخلو من معاني الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. **الأدلة الخاصة بتوحيد الألوهية:**

وبعد أن استعرضنا نماذج من الأدلة على أقسام التوحيد عامة، ننتقل إلى بيان الأدلة الخاصة بتوحيد الألوهية، وذلك لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يقرّ بهما المتكلمون، بل يحدّونهما حقيقة التوحيد، ويخطئون بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. مع أن الآيات القرآنية السابقة قد اشتملت على جميع أنواع التوحيد، إلا أن هناك آيات كثيرة اختصت ببيان توحيد الألوهية، وسنورد منها ما يدل على إفراد الله تعالى وحده بالعبادة. والهدف من ذلك التنبيه إلى أن المقصود هو الآيات التي تدل على الإفراد والاختصاص والحصص، لأنها تمثل حقيقة التوحيد، ولا يسوغ لأحد أن يفسر إفراد الله بالعبادة على أنه توحيد ربوبية، فإن هذا صرف للمعنى عن موضعه. فمن ذلك:

- قوله تعالى - في جواب قوم هود له-: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ} [الأعراف: ٧٠].

فهذه الآية تدل بوضوح على أن هوداً عليه السلام دعا قومه إلى توحيد الألوهية، ويتضح ذلك من قول الله تعالى: {لِنَعْبُدَ اللَّهَ} يُشير إلى توحيد الألوهية، ويتضمن في مضمونه سائر أقسام التوحيد الأخرى، وقوله تعالى: {وَحْدَهُ} نص في الوجدانية.

وهذا هو معنى قوله تعالى: **{أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ}** [ص: ٥].

وإنما محل إنكارهم كان في أفراد الله بالعبادة، أما توحيده في الخلق والرزق وما شابه، فقد أقرّوا به.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت عاد له: أجنّتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصاً، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آبائنا يعبدونها ونتبرأ منها؟، لسنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعوننا إليه فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد^(١٢).

- وإذا تأملنا في قوله تعالى: **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [التوبة: ٣١] نجد فهي تدل على التوحيد في قوله تعالى: ليعبدوا إلهاً واحداً، وهذه الوجدانية لم تأت في سياق الربوبية أو الأسماء والصفات، بل وردت صريحة في سياق العبادة، كما هو ظاهر من نص الآية، وهذا بلا شك يختلف عن مجرد الإقرار بتوحيد الربوبية أو الأسماء والصفات.

وأما قوله تعالى: **{إِلَهًا وَاحِدًا}** وقد ورد ذلك مراراً في القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: **{وَالِلَّهِ الْمُلْكُ وَلِلَّهِ الْغَنَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: ١٦٣] وقوله تعالى: **{وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ}** [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ}**

^(١٢) جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ، ٥/٥٢٨.

إِلَّا إِلَهَ وَاحِدٌ {المائدة: ٧٣}

وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٩]
وقوله تعالى: {أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩] واسم
(الله) مشتق من الإله وهو المعبود. وقوله تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٥٢]. وقوله تعالى:
{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}
[النحل: ٢٢]. وقوله تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} [النحل: ٥١]. وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الكهف: ١١٠]. وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [الأنبياء: ١٠٨].

ومن خلال هذه الآيات يتبين أن الإله وُصف بالواحد، وهذا تصريح بوحدانيته،
والمقصود بالإله هنا هو المعبود، مما يدل على أن الوحدانية المنصوص عليها
هي في العبادة.

فهذه الآيات كلها تدل بوضوح على توحيد الألوهية على وجه الخصوص، لا
سيما أن بعضها ورد بصيغ تفيد الحصر، كأداة (إنما) أو أسلوب النفي والإثبات،
وهي صيغ تدل على الانفراد والاختصاص. كما تضمنت بعض الآيات بياناً
صريحاً بأن الأقوال أو الأعمال لا تُصرف إلا لله تعالى وحده، ويكفي في بيان
ذلك التمثيل بمثاليين:

الأول: في الدعاء قال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ
بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: ١٢].

والثاني: الحكم قال تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
الْفَاصِلِينَ} [الأنعام: ٥٧] وقال تعالى: {إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}
[الأنعام: ٦٢]

والحكم منه ما هو موافق لمعنى الربوبية وهو الحكم الكوني العام الموافق لمعنى الخلق، ومنه ما هو موافق لمعنى الألوهية وهو الحكم الشرعي الموافق لمعنى المحبة. ومن هذا المعنى الأخير قوله تعالى: **{إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ}** [يوسف: ٤٠] ولهذا سمي القرآن الكريم - وهو أمره الشرعي - حكم فقال تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}** [الرعد: ٣٧].

ومما يدل على أن أفراد الله تعالى بالعبادة، وهو توحيد الألوهية، يُعدّ أحد أنواع التوحيد: الأمر بإخلاص العبادة لله، والإخلاص يعني تصفية العبادة من كل ما يشوبها من شرك أو رياء، "والخالص كالصافي" ^(١٣) ولهذا سمي «كل شيء أبيض: خالص» ^(١٤)، والتصفية من الشوائب تدل على الانفراد؛ ومنه قوله تعالى: **{فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا}** [يوسف: ٨٠] أي: "انفردوا خالصين عن غيرهم" ^(١٥)، "واستخلصه لنفسه: استخصه" ^(١٦) ومن الآيات في ذلك: قوله تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}** [الزمر: ٢] وقال تعالى: **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}** [الزمر: ١١] وقال تعالى: **{قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}** [الزمر: ١٤] وقال تعالى: **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** [الزمر: ٣].

قال ابن جرير - في معنى قوله تعالى: **{فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}** [الزمر: ٢] -: يقول تعالى ذكره: فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكاً كما فعلت عبدة الأوثان ^(١٧).

وقال قتادة - في قوله تعالى: **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** -: "شهادة أن لا إله إلا

^(١٣) المفردات - للراغب الأصفهاني - ص: ٢٩٢.

^(١٤) القاموس ص: ٧٩٧.

^(١٥) المفردات - للراغب الأصفهاني - ص: ٢٩٢.

^(١٦) القاموس ص ٧٩٧.

^(١٧) جامع البيان ١٠/٦١١.

الله" (١٨).

يقول ابن جرير - في معنى {قُلِ اللَّهُ أَغْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}-: (يقول الله ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لمشركي قومك: الله أعبد مخلصاً، مفرداً له طاعتي وعبادتي، لا أجعل له في ذلك شريكاً، ولكني أفرده بالألوهة، وأبرؤه مما سواه من الأنداد والآلهة) (١٩).

ومن الآيات كذلك قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنْفَاءً} [البينة: ٥]. يقول ابن جرير - في معنى هذه الآية-: «يقول: مفردين له الطاعة لا يخطون طاعتهم ربهم بشرك» (٢٠).

ومما تقدم - في النقل عن ابن جرير - يتبين أنه يفسر الإخلاص في العبادة بإفراد (توحيد) العبادة وتارة ينص على الألوهية.

وقد وصف الله نبيه يوسف عليه السلام بأنه من المخلصين، فقال تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]. وفي هذه الآية قراءتان:

إحدهما: من قرأ "المخلصين" بفتح اللام وهي قراءة عامه قراء المدينة والكوفة، فيكون المعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا.

والثانية: من قرأ "المخلصين" بكسر اللام، وهي قراءة بعض قراء البصرة فيكون المعنى - حينئذ - إن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئاً، ولم يعبدوا شيئاً غيرنا (٢١).

(١٨) رواه ابن جرير في الجامع ٦١٠/١٠.

(١٩) جامع البيان ٦٢٣/١٠.

(٢٠) المصدر السابق ٦٥٦/١٢.

(٢١) المصدر السابق ١٨٩/٧.

قلت: والمعنى الثاني يدل على توحيد الألوهية.

وقد جمع ابن جرير بين القراءتين بأنهما معروفتان وهما متفقتا المعنى وذلك أن من اختاره الله فلا بد أن يكون موحداً، وأن من كان موحداً مخلصاً فهو ممن اختاره الله^(٢٢).

وقد ورد في القرآن الكريم أسلوب آخر يبين أن أفراد الله تعالى بالعبادة، أي توحيد الألوهية، هو أحد أنواع التوحيد، وذلك من خلال إثبات العبادة لله وحده، ونفيها عما سواه، وهو ما يوافق تماماً معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

يقول تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ} [الرعد: ٣٦].

ويقول تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠].

ويقول تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣].

ويقول تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: ٦٠-٦١].

ويقول تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].

ويقول تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ

إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} [آل

عمران: ٦٤].

فهذه الآيات جاءت بصيغة الإثبات والنفي في شأن العبادة، وهذه الصيغة تدل

دلالة واضحة على توحيد الألوهية.

وقد ورد في بعض العبادات القلبية ما يدل على وجوب إفرادها لله تعالى فقال

تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣].

فهذه الآية تفيد وجوب إفراذ التوكل على الله وحده، والتوكل من العبادة، ودلالة

(٢٢) جامع البيان - باختصار - ١٨٩/٧.

إفراده مأخوذة من تقدم الجار والمجرور، ومن الشرط في قوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣].

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: ٥٩].

ففي هذه الآية جعل الإيتاء يكون من الله ورسوله، «لأن الإيتاء هو الإعطاء الشرعي وذلك يتضمن الإباحة والإحلال، الذي بلغه الرسول، فإن الحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]. وأما الحسب فهو الكافي، والله وحده كاف عبده»^(٢٣)، ولهذا لم يصرف للرسول صلى الله عليه وسلم، ومثله الرغبة فإنها عبادة قلبية لا تكون إلا لله، ولهذا لم تكن للرسول صلى الله عليه وسلم كذلك.

ومثل هذا قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: ٥٢]. فقد أثبت الطاعة لله وللرسول، كما أثبت الإيتاء في الآية السابقة، وأفرد الله وحده بالخشية والتقوى، كما أفرد به بالحسب والرغبة في الآية السابقة.

وقد أطلق بعض السلف لفظ «التوحيد» على العبادة، مما يدل على أن إفراده الله تعالى بالعبادة - وهو توحيد الألوهية - كان يُعد عندهم أحد أنواع التوحيد، ومما يدل على ذلك ما يلي:

قول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} [البقرة: ٢١]. حيث قال: «للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم»^(٢٤).

كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}

(٢٣) فتاوى ابن تيمية، مطابع الرياض، ط ١، ١٣٨١هـ، ١٠٧/٣-١٠٨.

(٢٤) رواه ابن جرير في جامع البيان ١/١٩٦.

[الفتحة: ٥] إياك نوحّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك^(٢٥).

وقد جرى الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب على اعتبار أن العبادة هي من صميم التوحيد، حيث قال في المسألة الثانية من كتاب التوحيد: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه..

وقد أوضح الشيخ محمد بن صالح العثيمين - في شرحه - مراد الإمام محمد بن عبد الوهاب بأحسن بيان، فقال: أي: أن العبادة مبنية على التوحيد، فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لاسيما وأن بعض السلف فسروا قوله تعالى: ﴿لَا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] إلا ليوحّدون.

وهذا مطابق تماماً لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد، فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(٢٦)^(٢٧).

ومما يؤكد أن أفراد الله تعالى بالعبادة يُعد نوعاً من التوحيد، أن الشرك - وهو نقض التوحيد - إنما يقع في العبادة أو في بعض صورها، فلو لم يكن تخصيص الله بالعبادة من التوحيد، لما صحّ إطلاق وصف الشرك على من صرف شيئاً منها لغير الله. ويمكن الاستدلال على ذلك بجملة من الآيات التي تبين وقوع الشرك في العبادة، منها:

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن

^(٢٥) أخرجه ابن جرير ٩٩/١.

^(٢٦) رواه مسلم - كتاب الزهد - باب من أشرك في عمله غير الله - ٢٢٨٩/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^(٢٧) القول المفيد شرح كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٨ هـ، ١/٤٤-٤٥.

- يُشْرِكُ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ { [المائدة: ٧٢]
- وقال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥].
- وقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١].
- وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: ١٦٥].
- وقال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠].
- وقال تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].
- وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} [الجن: ٢٠].
- وبعد أن تم عرض جملة من الأدلة الدالة على توحيد الألوهية على وجه الخصوص، يجدر التنبيه إلى أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يدخلان كذلك ضمن أقسام التوحيد، وقد دلت على ذلك نصوص متعددة من كتاب الله تعالى، تبرز انفراده سبحانه بالخلق والتدبير، واتصافه بصفات الكمال والجلال:
- قال تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرِزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣].
- وقال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل: ١٧].
- والآيات الواردة في خلق الله تعالى للمخلوقات كثيرة جداً كلها تدل على الربوبية.
- وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الملك: ١].
- وقال تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} [

[المؤمنون: ٨٨].

- وقال تعالى: **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: ٥٤].
غير أن هذا النوع من التوحيد لا يُراد لذاته، بل هو متمم للتوحيد المقصود، إذ يُعدّ أساساً مهماً في عبادة الله تعالى، ويكتمل أثره بتحقيق العبادة العملية الخالصة لله وحده.

- وقال تعالى: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}** [الأعراف: ١٨٠].
وتقديم الجار والمجرور يدل على الحصر.

- وقال تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [الحشر: ٢٢-٢٤].

- وقال تعالى: **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...}** [البقرة: ٢٥٥] آية الكرسي.

- وقال تعالى: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}** [الإخلاص: ١-٢].

يتبين مما سبق أن تقسيم التوحيد مستمد من نصوص الكتاب والسنة، وقد دلّ عليه النظر والاستقراء، حيث يُقسّم التوحيد إلى ثلاثة أقسام من جهة متعلقه بالله تعالى، وإلى قسمين من جهة متعلقه بالعبد، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً.

وتعدّد تقسيم التوحيد يُعدّ من قبيل التنوع الاصطلاحي، وهو من الأمور الفنية التي لا حرج في اختلاف عباراتها ما دامت لا تُخلّ بالمعنى. والمقصود من أي تقسيم معتبر هو بيان أن للتوحيد جانبين أساسيين:

الأول: ما يتعلّق بالاعتقاد والتصديق.

والثاني: ما يتعلّق بالعمل والطلب.

وقد أشار جماعة من أهل العلم إلى أن النصوص الشرعية تجمع بين هذين

الجانبين، ويبنوا ذلك بوضوح، ومنهم ابن القيم حيث قال: «التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزل به كتبه... نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد»^(٢٨).

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته، وأفعاله وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة الكافرون وقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...} [آل عمران: ٦٤] الآية، وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس»، ووسطها، وآخرها، وأول سورة الأعراف» وآخرها، وجملة «سورة الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد.

وقد أوضح الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن القرآن كله دائرة حول التوحيد بأنواعه، إما تقريراً له أو دعوة إليه أو بياناً لآثاره، حيث قال:

"قالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو توحيد علمي خبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، فهذا توحيد إرادي طلبی، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فهي من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يُكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد"^(٢٩).

(٢٨) مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٣، ص٤٤٩.

(٢٩) السابق، ص ٤٥٣.

ويتبين أن القرآن الكريم في جوهره لا يخرج عن أحد أمرين: إما بيان التوحيد وحقوقه وآثاره، أو التحذير من الشرك وأهله وعواقبه. فأيات الأمر والنهي تدخل في إطار حقوق التوحيد، إذ إن الالتزام بأوامر الله ونواهيه هو من كمال التوحيد العملي. كما أن الآيات التي تتحدث عن فضل الله وإنعامه على الموحدين في الدنيا والآخرة تُظهر ثمرة التوحيد، في حين أن ما ورد من أخبار عن العقوبات التي نزلت بأهل الشرك في الدارين يُعدّ بياناً لحال من نقض التوحيد وخرج عن مقتضاه.

ف {الْحَمْدُ لِلَّهِ} توحيد، و{رَبِّ الْعَالَمِينَ} توحيد، {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} توحيد، و{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} توحيد، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} توحيد، {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} توحيد، و{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الذين فارقوا التوحيد.

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته، وأنبيأوه ورسله قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨] (٣٠).

كما أن العلامة الشنقيطي بين أن أقسام التوحيد دل عليها الاستقراء النصوص القرآن الكريم فقال رحمه الله تعالى: "وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام" (٣١):

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥] وقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ

(٣٠) مدارج السالكين ٤٤٩/٣ - ٤٥٠.

(٣١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ط١،

١٤١٥هـ، ج١، ص٨٤

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبد مريبوب؛ بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ...} [الإسراء: ١٠٢] الآية، وقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًا...} [النمل: ١٤].

وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦] والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني: توحيده - جل وعلا - في عبادته. وضابط توحيد الألوهية يتحقق بفهم ومعايشة مدلول كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وهي كلمة مركبة من نفي وإثبات. فالنفي فيها يتضمن خلع جميع أنواع المعبودات من دون الله، أيًا كانت، ورفض صرف أي نوع من أنواع العبادات لها مهما كان نوعها. أما الإثبات، فهو إفراد الله جل وعلا وحده بالعبادة، بأن يُتَقَرَّبَ إليه بجميع أنواع العبادات على وجه الإخلاص، ووفق ما شرعه على السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - ويُعَدَّ هذا النوع من التوحيد هو الغالب في آيات القرآن الكريم، وهو محل الصراع والابتلاء بين الرسل وأقوامهم {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ} [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...} [محمد: ١٩] الآية، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}

[الزخرف: ٥٥]، وقوله: **{قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** **[الأنبياء: ١٠٨]** أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن أن مضمون الوحي محصور في هذا النوع من التوحيد، لما تتضمنه كلمة لا إله إلا الله من دلالات عظيمة، إذ تشمل أفراد الله بالعبادة وطاعته في جميع ما أمر به ونهى عنه.

وهذا يندرج تحته أصول العقيدة، وسائر الأوامر والنواهي، وما يتبعها من الثواب والعقاب. ومن هنا، فإن الآيات التي تقرر هذا النوع من التوحيد في القرآن كثيرة، لما له من مركزية في دعوة الرسل جميعاً.

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصليين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقات في صفاته؛ كما قال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** **[الشورى: ١١]**.

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ أو وصفه به رسوله على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** **[الشورى: ١١]**.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ}** **[يونس: ٣١]**؛ فلما أقرروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم

به غيره بقوله: {فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١]»^(٣٢).

ومما يدل على أقسام التوحيد المتقدمة أن الكلام عند أهل الأصول والمعاني وغيرهم نوعان:

- كلام يوصف بأنه صدق أو كذب وهو الخبر، وهذا الخير دائر بين النفي والإثبات من قبل المتكلم، المقابل بالتصديق أو التكذيب من قبل المخاطب.
- وكلام لا يمكن أن يوصف بأنه صدق أو كذب وهو الطلب، وهذا الطلب دائر بين الأمر والنهي من قبل المتكلم، المقابل بالطاعة أو المعصية من قبل المخاطب»^(٣٣).

هاتان الفئتان موجودتان في نصوص القرآن الكريم، وخاصة في نصوص التوحيد:

النوع الأول وهو الخبر، يمثل توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ويطلب من المكلف الاعتقاد به وإقراره.

أما النوع الثاني وهو الطلب، فيمثل توحيد الألوهية، ويطلب من المكلف العمل وفقه والإخلاص في العبادة.

وبذلك، فإن التوحيد يشمل جانبي العلم والعمل معاً.

التفريق في مفهومي توحيد الألوهية والربوبية:

نظراً لأن توحيد الاعتقاد محل إجماع بين أهل السنة وأهل الكلام، بينما اختلفوا في إثبات التوحيد العملي، أصبح من الضروري بيان التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

وعندما يتضح هذا التفريق ويتفق على وجود نوعين من التوحيد: توحيد

^(٣٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، ١٠/٣-٤١٤، وقد ذكر أمثلة كثيرة على المعنى الأخير في كلامه.

^(٣٣) مجموع فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ١١٠/٤.

الألوهية وتوحيد الربوبية، لا يُنكر أحد وجود توحيد الأسماء والصفات. وبناءً عليه، يصح تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام باعتبار معين، وإلى قسمين باعتبار آخر كما سبق.

ويمكن أن نحمل التفريق بين توحيد الألوهية (وهو التوحيد العملي) وبين توحيد الربوبية (وهو التوحيد العلمي) بما يلي:

١- أن اشتقاق الألوهية من الإله، واشتقاق الربوبية من الرب، ولكل واحد منهما مفهوماً مغايراً للآخر، في لغة العرب، وفي القرآن الكريم، فالإله: فعال بمعنى مفعول أي مألوه، والتأله هو التعبد. والرب: مأخوذ من التربية والرعاية والسيادة.

وعلى هذا: فهما مفهومان متغايران وليس مترادفين.

٢- أن توحيد الربوبية أقر به المشركون- في الجملة-، أما توحيد الألوهية فقد وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأقوامهم، ولو كانت الألوهية هي الربوبية لما حصل نزاع بين الرسل وأقوامهم، فلما حصل النزاع- وقد علمناه يقيناً- دل هذا على أن هناك فرقاً بين ما أقروا به، وما خالفوا فيه.

٣- أن الله تعالى استدل على ألوهيته ووجوب إفراذه بالعبادة بربوبيته وأفعاله مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]- الآيات- ولاشك أن الدليل لا بد أن يكون غير المدلول.

٤- أن مدلول توحيد الربوبية ومعناه، مدلول ومعنى علمي، أما مدلول توحيد الألوهية ومعناه، فهو مدلول ومعنى عملي، وفرق بين المدلول العلمي والمدلول العملي، وهذا الفرق يشعر به الإنسان من نفسه، فالخوف والرجاء والمحبة والإنابة وآثارها من الجهاد وترك المحرمات ونحو ذلك غير إثبات أن الله هو الخالق والرازق والمحي والمميت ونحو ذلك.

٥- أن متعلق توحيد الربوبية: الأمور الكونية: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة

ونحوها. ومتعلق توحيد الألوهية: الأوامر والنواهي: من الواجب والمحرم والمكروه...^(٣٤).

٦- أن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله تعالى، ومهمة العباد في هذا التوحيد هو التصديق والاعتقاد بموجبه لأنها أخبار من الله تعالى أما توحيد الألوهية فهو توحيد الله بأفعال العباد من الخوف والرغبة والمحبة والرغبة والصلاة والصوم ونحو ذلك.

وهناك فرق بين أفعال الله تعالى، وأفعال العباد، وفرق بين ما يوجب العلم والاعتقاد، وما يوجب القصد والطلب والعمل.

٧- أن الألوهية متضمنة للربوبية من دون عكس، ومتضمنة أيضاً لتوحيد الأسماء والصفات، ولا شك أن المتضمن - بالكسر -، والمتضمن - بالفتح - شيان لا شيء واحد^(٣٥).

ومن وجه آخر:

فالربوبية تستلزم الألوهية، وهذا يدل على أن الألوهية خارج مدلول الربوبية لكن لا يتحقق مدلول الربوبية بكمالها وتامها إلا بالألوهية، وقد يؤمن الرجل بالربوبية ولا يؤمن بالألوهية لكن لا يتم له الإيمان بها، وهذا يدل على التفريق بين مدلوليهما

٨- أن الإجماع منعقد على أنه لو آمن بالربوبية ولم يأت بالألوهية لا يكون بذلك مسلماً كما أنه لو قال بدل (لا إله الا الله) قال (لا خالق الا الله) لا يتم له عقد الاسلام بذلك.

٩- أن استقراء النصوص يدل على أن ما اختص الله به ووجب أن يوحد فيه نوعان **احدهما**: العبادة، **وثانيهما**: الخلق والرزق وما يتبع ذلك، وقد تقدم ذكر

^(٣٤) انظر المدخل لدراسة العقيدة (البريكان) ص: ٩٦.

^(٣٥) انظر: الماتريدية، للشمس الأفغاني، ط دار الصديق، الطائف، ١٨٨/٣.

أمثلة على النوعين مما يدل على أنهما مفترقان بل قد يجمع بينهما في آية واحدة كما تقدم التنبيه على شيء من ذلك

١٠- أن التقسيم والتفريق ثابت عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين السابقين قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بل قبل شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله أجمعين.

واليك ذكر نماذج من ذلك:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما- في قوله تعالى {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]-: «أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم ولا يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه^(٣٦).

وقال- في قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: ٨٧]-:

ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض ؟ ليقولن: الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه^(٣٧).

وقد تقدم قوله- رضي الله عنه- في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: ٢١] حيث قال: «وحدوا ربكم^(٣٨).

- وقال مجاهد رحمه الله تعالى- في قوله {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره^(٣٩).

^(٣٦) رواه ابن جرير في تفسيره ١/١٩٩.

^(٣٧) المصدر السابق ٧/٣١٣.

^(٣٨) المصدر السابق ١/١٩٦.

^(٣٩) المصدر السابق ٧/٣١٣.

- وقال قتادة رحمه الله تعالى - في قوله {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]: «أي تعلمون

أن الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أن أنداداً»^(٤٠).

وقال - في قوله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]: «في إيمانهم هذا. إنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته»^(٤١).

- قال ابن جرير رحمه الله تعالى - في الكلام على آية البقرة: «تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعني بذلك كل مكلف، عالم بوحداية الله وأنه لا شريك له في خلقه، يشرك معه في عبادته غيره عربياً كان أو أعجمياً، كاتباً أو أمياً»^(٤٢).

يبين هذا أن مراد ابن عباس وقتادة - رضي الله عنهما - هو أن المشركين يعترفون بالربوبية، ولكنهم يشركون في توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية. وبذلك، فإن هذا التفسير لا يقتصر على بيان فهم ابن عباس وقتادة فحسب، بل يدل أيضاً على أن ابن جرير الطبري - رحمه الله - يفرق بين هذين النوعين من التوحيد ولا يجعلهما متساويين في المعنى.

- قال عكرمة رحمه الله تعالى - في قوله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]: «تسألهم: من خلقهم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره»^(٤٣).

- قال ابن زيد رحمه الله تعالى - في الآية السابقة: «ليس أحد يعبد مع الله

^(٤٠) المصدر السابق ١/١٩٩.

^(٤١) المصدر السابق ٧/٣١٣.

^(٤٢) جامع البيان ١/٢٠٠.

^(٤٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٧/٣١٢.

غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورزقه وهو يشرك به.

ألا ترى كيف قال إبراهيم: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٧٥-٧٧] قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به الا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»، المشركون كانوا يقولون هذا^(٤٤).

- وقال السدي رحمه الله تعالى:- في قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]: «خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع، ومن العبادة عبادة لا تنفع {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس تنفعهم مع شركهم^(٤٥).

- أما الإمام الطبري- رحمه الله- فلا تكاد تمر آية تتناول توحيد الألوهية إلا ويُشير إليها بتبنيه يُظهر إدراكه العميق لأهميتها وحرصه على بيانها.

قال- في قوله تعالى: {يَعْبُدُونَ}: «يجعلون له شريكا في عبادتهم إياه فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثان، وليس منها شيء شركه في خلق شيء من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن فكر فيها بعقل، وتدبرها بفهم!»^(٤٦).

- قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: (والله يدعى من أعلى لا من أسفل، لأن

^(٤٤) المصدر السابق ٣١٣/٧-٣١٤.

^(٤٥) انظر: درء التعارض ٤٧٨/٨.

^(٤٦) جامع البيان ١٤٤/٥، وانظر ٢٢٠/١٠، ٨/١١ ومواضع أخرى كثيرة.

الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء^(٤٧).

فذكر أقسام التوحيد الثلاثة:

- أما توحيد الأسماء والصفات ففي قوله «يدعى من أعلى لا من أسفل».
- وأما توحيد الربوبية والألوهية ففي قوله «لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».
- قال القاضي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: «... لا يعرف إلا بأسمائه ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]،... وإنما دل الله عز وجل خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم رباً يعبدوه ويطيعوه^(٤٨) ويوحده، ليعلموا أنه مكونهم لا هم كانوا، ثم تسمى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم، وأنا الخالق، وأنا القادر، وأنا المالك، أي: هذا الذي كونكم يسمى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف...^(٤٩).
- قال ابن بطة العكبري في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية»: «وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء: أحدها: أن تعتقد ربانيته ليكون بذلك مباحيناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.
- والثاني: أن تعتقد وحدانيته ليكون مباحيناً بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

^(٤٧) الفقه الأبسط ص: ٤٠.

^(٤٨) الصواب: يعبدونه ويطيعونه ويوحده، لأنها من الأفعال الخمسة وليس ثم ناصب ولا جازم.

^(٤٩) رواه ابن مندة في التوحيد ٣/٣٠٤-٣٠٦، وأبو القاسم التيمي في الحجة في بيان المحجة ١/١١١-١١٣ بإسناد إلى أبي يوسف.

والثالث: أن يعتقده موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه إذ قد علمنا أن كثيراً ممن يقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده.

ولأننا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها^(٥٠).

- قال الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي في متن العقيدة المشهور:

"نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: أن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره"^(٥١).

- فقله: «أن الله واحد لا شريك له» عام يشمل أنواع التوحيد كلها.
 - وقوله: «ولا شيء يعجزه» المراد به: توحيد الأسماء والصفات.
 - وقوله: «ولا شيء يعجزه» المراد به: توحيد الربوبية.
 - وقوله: «ولا إله غيره» المراد به: توحيد الألوهية.
- ونصوص العلماء في التوحيد تشتمل على ذكر أنواعه الثلاثة، وما ذكرنا فيه كفاية لبيان المراد^(٥٢).

^(٥٠) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبه الفرق المذمومة، لأبي عبد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق: رضا نعلسان، عثمان الأثيوبي، ط ١، دار الرياض، ١٤١٥ هـ، ص ٦٩٣-٦٩٤ من النسخة الخطية (عن القول السديد ص: ٣٠).

^(٥١) انظر: متن العقيدة الطحاوية مع شرحه لابن أبي العز الحنفي ص: ١٣، ٤٠، ٤٨ ط الارناؤوط.

^(٥٢) انظر: لمجل أبواب كتاب التوحيد لابن منده رحمه الله تعالى تجد أنها تشتمل على أنواع التوحيد السابق ذكرها.

الأصل الكلي في تصنيف أقسام التوحيد:

يمكننا هنا بيان أصل كلي يدل على تقسيمات التوحيد، وهو أن التوحيد جزء من الإيمان. والإيمان عند السلف يتضمن القول والعمل، فالقول هو إقرار القلب وتصديقه بما أخبر الله تعالى به، ومن ذلك توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وكذلك قول اللسان، ومنه شهادة ألا إله إلا الله التي تمثل توحيد الألوهية. أما العمل فهو ما يصدر من القلب من محبة وخوف ورجاء وتوكل وخضوع ورغبة ورهبة وغيرها، بالإضافة إلى أعمال الجوارح، وهو المقصود به توحيد الألوهية عملياً.

وبناءً على ذلك، فإن قول السلف في التوحيد يعد فرعاً من قولهم في الإيمان، ويمكن استنباط أقسام التوحيد من أقسام الإيمان كما سبق بيانه.

الأثر الأخلاقي للتوحيد

إن التوحيد في التصور الإسلامي ليس مجرد عقيدة ذهنية، بل هو مصدر عملي لبناء السلوك وتركبة النفس. ويتضح ذلك من خلال النظر في أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، حيث يظهر أثر كل قسم منها في تقويم الأخلاق وتوجيه السلوك الإنساني. وقد أجمع العلماء على أن التوحيد لا يصح ولا يكتمل حتى يثمر عملاً ظاهراً وسلوكاً مستقيماً، وهو ما عبّر عنه الإمام ابن تيمية بقوله: "الدين قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وهو مبني على أصول الإيمان الثلاثة: معرفة الرب، ومعرفة أمره، ومعرفة جزائه".

أولاً: الأثر الأخلاقي لتوحيد الربوبية:

يُعد توحيد الربوبية أصلاً من أصول الإيمان، وهو إفراد الله تعالى بأفعاله: كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والتدبير، والملك. ويقر به عامة الخلق، لكنه لا يُدخل في الإسلام إلا إذا اقترن بتوحيد الألوهية.

وقد قرر علماء أهل السنة أن هذا النوع من التوحيد يُثمر في النفس خضوعاً وطمأنينة وتوكلاً، لأنه يُشعر العبد أن كل ما يجري في الكون إنما هو بتدبير الله وحده، لا شريك له، فلا يخاف إلا من الله، ولا يرجو إلا إياه، ولا يطلب الرزق إلا منه، ولا يتذلل لمخلوق.

قال ابن أبي العز الحنفي: "قمن عرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر، أيقن أن الأمور كلها بيده، فاطمأن قلبه، ولم يلتفت إلى الخلق في طلب رزق ولا دفع ضرر"^(٥٣).

وهذا الإيمان العملي ينعكس أخلاقاً ظاهرة، فيثمر خلق العفة، والقناعة، والصبر، والرضا، والتوازن النفسي، ورفض الذل والخضوع لغير الله. وقد قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وفيها بيان أن الرزق بيد الله لا بيد المخلوقين، مما يغرس في النفس عزة واطمئناناً.

وقال السعدي في تفسيره: "فيه دلالة على أن الله هو المتكفل برزق عباده، فلا ينبغي أن ينشغل القلب بالخوف على المعاش، بل يطمئن لتدبير الله"^(٥٤).

ومن ثمرات هذا التوحيد أيضاً: نبذ التملق والنفاق، والوقوف عند حدود الله، لأن من يعلم أن الله هو المدبر والمهيمن يعلم أن أحداً لا يملك له ضرراً ولا نفعاً، فلا يُذلل نفسه لطمع، ولا يجحد حقاً لخوف، بل يثبت على خلق الاستقامة والكرامة والتوكل.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]، وهذه الآية وما في معناها ترسخ العقيدة وتربي الخلق في آن واحد.

^(٥٣) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٤

^(٥٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ٥١٤.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ففي هذه الآية جمع الله بين الإيمان والتعليم والتزكية، فبدأ بتلاوة الآيات التي تُحيي الإيمان، ثم بالتزكية التي تطهر القلب وتزكي السلوك، ثم التعليم الذي يضبط العمل. ونجد هنا مهمة الرسول الكريم مرتبطة بتلاوة آيات الله المشتمة على التوحيد والإيمان بالقرآن الكريم وبالتزكية الأخلاقية، وهذا الترتيب يدل على أن التزكية الأخلاقية ثمرة مباشرة لتوحيد الربوبية، إذ لا يمكن أن يُزكى القلب ويتهدب السلوك إلا بعد الإيمان بأن الله هو الرب الخالق المدبر، ومن ثم فلا يُذل المؤمن نفسه لمخلوق، ولا يتهافت على الدنيا بذل وحرص، بل يعيش عزيزاً بالله، تقياً بأخلاقه، مطمئناً بتدبيره. ويدل ذلك على أن من أعظم ثمرات التوحيد الصادق - وخاصة توحيد الربوبية - تطهير القلب من التعلق بغير الله، وتحرير النفس من الذل لغيره، وهي لب التزكية الأخلاقية

ثانياً: الأثر الأخلاقي لتوحيد الألوهية

يُعد توحيد الألوهية، والذي يُطلق عليه أيضاً توحيد العبادة، جوهر دعوة الرسل ومحور التوحيد الذي وقعت فيه المخالفة الكبرى من الأمم السابقة، وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً، وعدم صرف شيء منها لغيره.

وقد قرر أهل السنة والجماعة أن توحيد الألوهية هو توحيد الله بأفعال العباد، مثل: الدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والركوع، والسجود، والخوف، والرجاء، والإنابة، وكل ما يدخل تحت اسم العبادة، وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وتوحيد الألوهية هو الأصل الذي دعت إليه الرسل، وأنزلت من أجله الكتب، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله^(٥٥)".

(٥٥) الفتاوى الكبرى، ٩١/١

هذا النوع من التوحيد يُثمر في النفس أعظم الآثار الأخلاقية، إذ أن العبد إذا أخلص عبادته لله، وصرف قلبه إلى ربه، نشأ في قلبه الحياء من الله، والمراقبة له، والخوف من مقامه، والرجاء في رحمته، وهذه المعاني التربوية تنعكس سلوكًا ظاهرًا في الصدق، والعدل، والأمانة، وحسن المعاملة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وفيها بيان أن حياة المؤمن كلها قائمة على الإخلاص لله، والإخلاص أصل في الأخلاق.

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فالمخلص لا يظلم، ولا يرأى، ولا يخون، لأن أعماله مراقبة لله وحده.

ويقول الإمام ابن القيم: "إن أعظم الخلق توحيدًا أعظمهم خلقًا، وأقلهم توحيدًا أقلهم خلقًا، ولهذا كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا لأنه أكملهم توحيدًا" (٥٦).

ومن السنة قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (٥٧)، فجعل أول الإصلاح في تقوى الله، وهي لب التوحيد، وثمرتها حسن الخلق.

وكما نعلم أن توحيد الألوهية هو: إفراد الله بالعبادة، من صلاة وصوم وزكاة ودعاء وخوف ورجاء ومحبة وطاعة وانقياد، ظاهرًا وباطنًا. وهذا النوع من التوحيد هو الذي وقع فيه أعظم الانحراف في الأمم، وهو محور دعوة الأنبياء جميعًا.

وفي سورة الماعون نرى مظاهر واضحة لمخالفة توحيد الألوهية فهي تفضح من يعبد الله بظاهره دون باطنه، ويؤدي العبادة رياءً لا إخلاصًا، فيجتمع فيه التكذيب القلبي والنفاق العملي، وكلاهما من نواقض توحيد الألوهية:

١. ﴿يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾: التكذيب بيوم الدين إنكار لحقيقة التوحيد، لأن من لا يؤمن

(٥٦) مدارج السالكين، ٣٠٥/٢.

(٥٧) رواه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، برقم

(١٩٨٧).

بالجزاء لا يُخلص العبادة لله، ولا يمتثل له بالخوف والرجاء، وهما ركنان من أعمدة توحيد الألوهية.

٢. ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ • وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: الأثر السلوكي للتكذيب بالدين: قسوة، وحرمان، وجفاء. ولو تحقق توحيد الألوهية في قلبه لامتثل لأمر الله في الرحمة والإحسان.

٣. ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: ساهون: أي غافلون عنها، لا يؤدونها بإخلاص، وهذا نقص في الإخلاص وهو لبّ توحيد الألوهية.

٤. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾: صريح في نقض توحيد الألوهية، لأن المرائي لا يعبد الله وحده، بل يجعل مع الله غيره، وهذا شرك في النية والعبادة.

٥. ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: أي يمنعون المنافع اليسيرة عن الناس، وهو دليل على فساد الباطن، وعدم الخضوع لله في السلوك، وكل ذلك نتيجة ضعف التوحيد. ومن هنا يظهر أن توحيد الألوهية، كما تقرره عقيدة أهل السنة، ليس نظرية ذهنية بل هو مصدر تهذيب، ومنبع أخلاق، وأساس استقامة السلوك، وكلما قوي التوحيد، علت أخلاق العبد، وكلما ضعف، تسرب إليه الرياء، والنفاق، وسوء المعاملة.

ثالثاً: الأثر الأخلاقي لتوحيد الأسماء والصفات

قال حافظ الحكمي: "ومعرفة أسماء الله وصفاته تبعث في القلب الحياء من الله، والمراقبة له، والخوف منه، والرجاء في رحمته، وهذه كلها أخلاق رفيعة^(٥٨)". يدل هذا على أن معرفة العبد بأسماء الله وصفاته تُثمر خلق الحياء، والمراقبة، والرحمة، والعفو، والعدل، بحسب ما تقتضيه تلك الصفات الإلهية. فمن عرف أن الله رؤوف رحيم، أحب أن يرحم الناس. ومن علم أن الله سميع بصير، راقب أقواله وأفعاله.

(٥٨) معارج القبول، ج١، ص ١٦٠

قال الشيخ السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]: "هذه الرقابة تغرس في العبد أعظم مراقبة، وتردعه عن المعصية، وتدعوه إلى معالي الأخلاق^(٥٩)".

وقد قال النبي ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة^(٦٠)"، ومعنى "أحصاها" أي: علمها، وتعبّد الله بها، وتخلق بما تضمنته. ولهذا، فإن التخلق بمعاني أسماء الله هو طريق الوصول إلى كمال الخلق، فيتحلى العبد بالحلم لأنه يعلم أن الله حلیم، وبالعدل لأنه يعلم أن الله عدل، وبالرحمة لأنه يرجو رحمة الله لعباده.

لم تكن هذه المعاني الخلقية لتوحيد الله غائبة عن تأملات علماء الإسلام ومفكره، بل وجدنا في أقوالهم ما يعزز الرؤية السنية التي تجعل التوحيد أساساً لكل فضيلة، ومنبعاً لكل خلق كريم.

فقد قرر الإمام أبو حامد الغزالي أن معرفة الله سبحانه وتعالى تورث القلب حباً وحياءً وخشية، فقال: «من عرف الله تعالى أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه لا بد أن يتحلى بالخلق الحسن»^(٦١). وهو بذلك يبين أن التوحيد إذا استقر في القلب أثمر حسن الخلق.

وقال الإمام ابن القيم: «فإن أعظم الخلق توحيداً أعظمهم خلقاً، وأقلهم توحيداً أقلهم خلقاً، ولهذا كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً لأنه أكملهم توحيداً»^(٦٢)، وقد ربط بذلك بين عمق التوحيد وبين علو الأخلاق، وهي قاعدة عظيمة في منهج التربية الإسلامية.

(٥٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٧٧

(٦٠) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، حديث رقم (٧٣٩٢).

(٦١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج ٤، ص ٢٩٣

(٦٢) مدارج السالكين، ٣٠٥/٢.

كما نبّه المفكر الإسلامي محمد إقبال إلى أن التوحيد الحق يُنتج العزة والحرية والصدق، فقال: «التوحيد الحقيقي هو الذي يحرر الإنسان من الخوف والخضوع لغير الله، ويغرس في قلبه العزة والأمانة والصدق»^(٦٣).

وعند شيخ الإسلام ابن تيمية نجد التأصيل الكامل لهذا المعنى، حيث يقول: «وكمال التوحيد هو ما يمنع العبد من الكذب والخيانة والفجور، ويثمر الصدق والأمانة والعفة»^(٦٤).

فهذه النصوص من أئمة أهل السنة والمفكرين الذين استقامت عباراتهم على منهجهم تؤكد أن التوحيد ليس مجرد تصور ذهني، بل هو عقيدة تُصلح القلب، وتُهذب السلوك، وتُقيم الأخلاق على أساس الإيمان.

توحيد الربوبية يغرس في النفس الثقة والتوكل والرضا، وتوحيد الألوهية يُثمر الإخلاص ومحاسبة النفس وحسن المعاملة، وتوحيد الأسماء والصفات يربط الأخلاق العليا بجلال الله وكماله.

والنصوص القرآنية تؤكد هذا الربط المحكم، حيث جعلت فساد العقيدة سبباً مباشراً في فساد الخلق، كما في سورة الماعون، وأمرت بالتخلق بالعرف والرفق كأثر من آثار معرفة صفات الله، كما في سورة الأعراف، وربطت التركيز الأخلاقية بالبعثة النبوية وتلاوة الآيات، كما في سورة الجمعة.

"إن الناظر في أقوال العلماء يجد أن التوحيد الصحيح بأقسامه الثلاثة هو البوابة الأولى لبناء الخلق، وأن الأخلاق الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة، بل هي انعكاس عملي لمستوى الإيمان والتوحيد الذي يحمله الإنسان في قلبه".

^(٦٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، دار الهلال، القاهرة،

الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ٦٨-٧٠.

^(٦٤) الفتاوى الكبرى، ١/٣٢٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وأسأله تعالى أن يخلص لنا النيات، وأصلي وأسلم على خير البريات نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فبعد أن انتهينا من بيان البحث ومفرداته وأجزائه، يحسن بنا أن نذكر النتائج المهمة فيه، وهي على النحو التالي:

- أن التوحيد عند أهل السنة ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد لأسماء والصفات، أو إلى قسمين: التوحيد العلمي (المعرفة والإثبات)، والتوحيد العملي (القصد والطلب).
- أن الأقسام السابقة مأخوذة من الكتاب والسنة من حيث المعنى، وأما الاختلاف فيفي العبارات وهو عمل فني.
- إن معنى الإله عند أهل السنة المعبود، وقد دل على ذلك اللغة واستعمال الشرع، ولهذا فسر أهل السنة الشهادة بأنها تدل على توحيد الألوهية.
- أن الرسل دعوا إلى توحيد الألوهية حيث كان شرك أقوامهم فيه.
- التوحيد هو أصل الأخلاق ومصدرها الأول في التصور الإسلامي.
- كل خلقٍ ذميمٍ هو أثر لخلل في تصور التوحيد أو ضعف فيه.
- الخطاب الدعوي والتربوي بحاجة إلى ربط أوضح بين العقيدة والسلوك.

التوصيات:

- ضرورة تعزيز الجانب العملي للتوحيد في المناهج التعليمية والدعوية.
 - التركيز في الإصلاح التربوي على البنية العقدية لا السلوك الظاهري فقط.
 - إعداد دراسات تربط بين فروع الإيمان وأثرها الأخلاقي في الواقع.
- ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبه الفرق المذمومة، لأبي عبد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق: رضا نعان، عثمان الأثيوبي، ط١، دار الرياض، ١٤١٥هـ.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، تحقيق: عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
- بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية، تصحيح وتعليق: محمد عبد الرحمن بن قاسم، مؤسسة قرطبة.
- التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير، بكر بن عبد الله أبو زيد.
- تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان آل الشيخ، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٥هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار البيان، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
- الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

- فتاوى ابن تيمية، مطابع الرياض، ط١، ١٣٨١هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.
- القول المفيد شرح كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٨هـ.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- لوامع الأنوار البهية شرح الدرة البهية: السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت.
- الماتريدي، للشمس الأفغاني، ط دار الصديق، الطائف.
- المجموع الثمين في فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين: جمع فهد سلمان، دار الوطن، الرياض.
- مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة مصورة عن مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.